مجلة العلوم الإنسانية — عدد 51 - جوان 2019، ص.ص. 351 - 362

الغربة والاغتراب في أدب السيرة والمذكرات عند مالك بن نبي

Exile and alienation in the literature biography and memoirs when Malik bin Nabi

تاريخ الاستلام : 2019/06/19؛ تاريخ القبول : 2019/04/23

أ/ عبد الرحمن مزرق
كلية الآداب و اللّغات
قسم اللّغة و الأدب العربي
جامعة محمد الصديق بن يحيى جيجل

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز ظاهرة الاغتراب عند مالك بن نبي من خلال أدب سيرته الذّاتية، المجسّد في مذكرات شاهد للقرن، الذي صدر جزؤه الأول سنة 1965، ثمّ جزؤه الثاني سنة 1970، مع اقتراب نهاية المسار.

إنّ هذه الحالة تبدو أكثر وضوحا في هذه السّيرة، و تمثل ظاهرة مسيطرة على الرّوح التي كتبت بها، متجلية في اتجاهاتها الفكرية و الفنية. خاصة و أن الكاتب قد استطاع بقلمه السّيال، أن يكشف عن العلاقة بين طبيعة الواقع المزري الذي كان يحياه، و بين عالم الحلم و الطموح الجبّار الذي يضطرم بين جوانبه، بين الأمل الذي لا يخبو، و بين معاملي الاستعمار و القابلية للاستعمار، وما تتسم به هذه العلاقة من تناقض، و تعارض، و تصادم، تكون نتيجتها شعورا بالإحباط و الضياع و الاغتراب

الكلمات المفتاحية: غربة، اغتراب، مذكرات، استعمار، قابلية للاستعمار، حضارة

Abstract

This study aims to highlight the phenomenon of alienation by Malik bin Nabi through the literature of his autobiography, embodied in the memoirs of a witness of the century, the first part was published in 1965, and then the second part in 1970, with the end of the track.

This situation seems clearer in this biography, and it is a dominant phenomenon in the spirit in which it was written, manifested in its intellectual and artistic directions. In particular, the author has succeeded in revealing the relationship between the nature of the miserable reality that he lived and the dream world and the great ambition which is forced between its aspects, between the hope that does not fade, and between the colonialists and colonialism, This relationship of contradiction, conflict, and collision, the result of a sense of frustration and loss and alienation

Keywords: alienation , memoirs, colonization, colonialism, civilization

Résumé

Cette étude a pour but de mettre en évidence le phénomène d'aliénation de Malik bin Nabi à travers la littérature de son autobiographie, incarnée dans les mémoires d'un témoin du siècle, dont la première partie a été publiée en 1965, puis la seconde partie en 1970, avec la fin du titre.

Cette situation semble plus claire dans cette biographie et il s'agit d'un phénomène dominant dans l'esprit dans lequel elle a été écrite, qui se manifeste dans ses directions intellectuelle et artistique. En particulier, l'auteur a réussi à révéler le rapport entre la nature de la misérable réalité qu'il a vécue et le monde onirique et la grande ambition qui est forcée entre ses aspects, entre l'espoir qui ne s'efface pas et entre les colonialistes et le colonialisme, Cette relation de contradiction, de conflit et de collision, résultat d'un sentiment de frustration, de perte et d'aliénation

Mots-clés: aliénation, mémoires, colonisation, colonialisme, civilisation

* **Corresponding** author, e-mail: Arabi.mez@gmail.com

© جامعة الاخوة منتوري قسنطينة 1، الجزائر 2019.

مقدمة

يتميّز مالك بن نبي عن غيره من المفكرين بمنهجه العلمي الدّقيق، و رؤاه المنطقية العقلية، و أصالته المتوثبة دائما إلى الارتقاء و السمّو. لم يعمل على استباق المستقبل و إن كان متبصّرا به. و لم يؤسّس لفرضيات أو تخمينات بعيدا عن الواقع. فالرّاهن وحده هو الذي منحه فرصة تقصي الماضي، و تحسّس المستقبل بوضع مقدمات لنتائج كفيلة بالتغيير.

و قد أسس بذلك لمدرسة فكرية جديدة، عقلا، و روحا، جعلت عصره ينتقده و يهمّشه، بسبب عاملين متوحشين:الاستعمار و القابلية للاستعمار.

هل كان ذنب مالك بن نبي أنه جاء في غير زمانه، ليعامل بهذه القسوة من عدّوه أولا، و من بني ملّته ثانيا.

لم يفهمه جيله و لا محيطه، فجعله يعيش حالة غربة و اغتراب أضنت روحه و جسده، حتّى آخر نفس من حياته.

فما هي هذه الحالة؟ و ما هو مفهوم الاغتراب؟ و كيف تجلّى عند مالك بن نبي من خلال أدب سيرته الذّاتية؟

مفهوم الغربة و الاغتراب:

يعتبر " هيجل " من المفكرين الأوائل الذين وضعوا فلسفة جدلية حول مفهوم الاغتراب ، باعتباره حالة تفرزها التناقضات الاجتماعية التي يمكن أن يعيشها أي إنسان. و مفهوم الاغتراب لديه يمثل حقيقة تستمد جذورها من الوجود الإنساني الأوّل في هذا العالم.

و لعل المقصود بالاغتراب عند "هيجل" «هو تلك العملية التي من خلالها يفقد الإنسان جزءا من ذاته في الوجود الخارجي، و في هذا الفقد إمّا أن تعثر الذّات على نفسها في العالم الذي أنتجته، فتتكامل مع ذاتها، و إمّا أن يكون العالم الذي أنتجته غريبا عنها، و لا ينتمي إليها، بل و يقف عدوا لها»(1).

ربّما كان هذا المفهوم هو نفسه عند ماركس، الذي كان يرتكز على حقيقة اغتراب الإنسان عن جوهره الإنساني، بمعنى أنّه لا يمارس ذاته كقوّة فعّالة في العالم، لأنّ طبيعة الأشياء إضافة إلى الظروف الاجتماعية و السياسية تقف حائلا مسيطرا على إرادة الإنسان، فارضة في كثير من الأحيان سيادة لا فكاك له منها.

وقد يأخذ هذا المفهوم بعدا نفسيا داخليا، فمكبوتات الإنسان و آلامه لها طابعها الاجتماعي ، الشيء الذي يولّد القلق و الاضطراب ، و عدم الشعور بالأمن، ممّا ينشأ عدد من التناقضات و المفارقات التي يقع الإنسان تحت عبئها و عبثها، وهو ما يبعث في نفسه عزوفا و انعزالا عن الآخرين ، و ربمّا لا مبالاة كذلك، و مقتا، و احتقارا، و في الوقت نفسه يبعث فيه حنينا إلى الماضي و محاولة العيش في أوهامه، و هذا ما يؤدي به إلى فقدان فرديته الشخصية الواقعية، و تفرّده من حيث هو كائن بشري.

و المفاهيم عادة ما تنتظم في نسق دلالي يتألف من حقول متعددة، متجاورة، متشابكة، ترتبط فيما بينها بعلاقات منطقية و جودية.

فمفهوم (الغربة) البسيط، يتجاور مع مفهوم (السفر) و ينتج عنه، كما يتجاور مع مفهوم (الحنين) و يؤدي إليه، و هي في معاجم اللغة بمعنى الاغتراب و النوى والبعد، و التغريب: النفي عن البلد(2)

و هي بهذا الشكل تحقق معناها في البعد عن الأهل و السكن و الأحباب، آخذة معها ذكريات الأماكن و الأصوات و الأشياء، و حتّى الطعوم و الرّوائح و الأذواق. وقد استخدم مصطلح الاغتراب بطرق مختلفة و معاني متعددة، شكلت ضبابية حوله و غموضا.

فكلمة (اغتراب) (Alienation) في اللّغة الانجليزية، و (Aliénation) في اللغة الفرنسية لها أصل لاتيني واحد هو (Alienation)، و المتتبع لاستخدامات هذا الاصطلاح في اللّغتين ، سيجد تماثلا كبيرا بينهما ;لأنّ كافة الاستخدامات مستمدة من الأصل اللاّتيني المشترك(3).

و بالإمكان من هذا التماثل استخراج ثلاث معان يستخدم فيها مصطلح الاغتراب و هي:

-1- فقد يستعمل بما يتعلق بالملكية، و هذا ربما يدخل في المفهوم القانوني لانتقال الملكية.

-2- وقد يفيد معنى فتور علاقة ودية مع شخص أو أشخاص آخرين.

-3- و ربّما ارتبطت كلمة الاغتراب بالغربة (التغريب) التي تفيد النفي، و النوى و البعد، كما أن هذا المصطلح يفيد في المجال الطبّي معنى الاضطراب العقلي الذي يجعل الإنسان غريبا عن ذاته و مجتمعه، و هو الأمر الذي تجاوزته الفلسفة حينما أشارت إلى غربة الإنسان عن جوهره.

و معظم مفاهيم و دلالات لفظة (الاغتراب) في القواميس الأوروبية مرتبطة بالانتقال المكاني و البعد عن الوطن، و كذا مرتبطة بعدم التوافق أو الانسجام مع اللّحظة الآنية أو نظم المجتمع السائد.

و نخلص إلى أن جميع المعاني التي تعبّر عن مصطلح الاغتراب، تشترك في معنى واحد: هو الانفصال و الانسلاخ.

وإذا كان الدّارسون قد واجهوا إشكالية ضبط و تحديد هذا المفهوم، فإن الأشكال التي يتنوع فيها (الاغتراب) أكثر غموضا و تعقيدا، لأنّه لا يوجد شيء يسمى بالاغتراب العام أو الشامل، بل هناك أنواع منه، كانت موجودة و لا تزال، و ربّما ظهرت أنواع أخرى مع استمرار المغامرة الإنسانية في سيرها الدؤوب في دروب الوجود المتعدّدة و المتباينة، « ولعلّ علماء الاجتماع و الفلاسفة الاجتماعيين يحسنون صنعا إذا وجّهوا اهتمامهم الى هذه الأنواع، و ذلك لأنها تشتمل على العديد من أهم الإمكانات التي يمكن أن تظهر على طريق الدراما المستمرة للحياة و التجربة الإنسانيين »(4)

إلاّ أنّ هذه الدراسة لن تفوّت الفرصة للإشارة إلى أنماط ثلاث من أنواع الاغتراب، تراها رئيسية و أساسية لكل أنواع الاغتراب الأخرى، وهي:

أولا: الاغتراب عن العالم و عن الآخرين، أو الاغتراب الموضوعي

ثانيا: الاغتراب عن الذّات، أو الاغتراب الذاتي

ثالثا: الاغتراب عن الله، أو الاغتراب الغيبّي

و مهما يكن من شيء فإنّ هذا المفهوم كفكرة يقوم على أساس التمييز بين الوجود الإنساني و جوهره، على أساس أن صورة الإنسان في مجتمعه لا تتفق مع جوهره و حقيقته، بل ربّما كان بينهما تعارض مثير، فما هو كائن لا يتّفق مع ما ينبغي أن يكون. و الإنسان المغترب (الغريب)، هو الإنسان الذي لا يحس بفاعليته و لا

أهميته و لا وزنه في الحياة، و إنّما يشعر بأنّ العالم على عكس ذلك، غريب عنه(5).

و ربّما كان الاغتراب الاجتماعي من أشدّ أنواع الاغتراب و أكثرها انتشارا وشيوعا ;حيث يشعر صاحبه بانفصال عن جانب أو أكثر من جوانب المجتمع، مثل:

- الشعور بالانفصال عن الآخرين
- الشعور بالانفصال عن القيم و الأعراف و العادات السائدة
- الشعور بالانفصال عن السلطة السياسية الحاكمة

و كل ذلك يؤدي إلى إحساس بالألم و الحسرة، أو بالتشاؤم و اليأس و الإحباط، وما يرافق ذلك أحيانا من سخط أو تمرد أو نقمة أو ثورة..

وهذا الشعور يتفاوت فيه النّاس، و لكنّ الشخصية الحساسة التي فيها شيء من العبقرية و التفوق قد تكون الأكثر عرضة لهذا الشعور من بين الآخرين، فـ"شاخت" «يعزو انعزال الفرد اجتماعيا إلى كونه شخصا خلاّقا، فربّما بحكم كنهه كذلك، شخص غير متوافق، يضع التقاليد موضع التساؤل أو يخرج عنها، و كلّما كانت أصالته أكثر عمقا، ازداد اضطراره للاغتراب عن مجتمعه»(6)

فهل يمكن اعتبار اغتراب صاحب مذكرات شاهد للقرن من هذا النوع الأخير؟ وكيف تجلّت هذه الحالة على صفحات أدب سيرته الذّاتية؟

السيرة الذاتية و المذكرات:

إنّ الإنسان مجبولٌ على حبِّ نفسه والتحدث عنها، وأغلب النّاس حديثهم عن أنفسهم إنّما يكون بطريقة شفوية مباشرة ،ومن كتم حديثه فإنّما لعارض من دين أو خلق أو نحو ذلك. وبعض النّاس يلجأ إلى التلميح دون التصريح لأنّ ذلك الحب المكبوت ينفجر معبّرا في صور شتى.

وإذا كان هذا الحديث حظّاً مشاعا بين بني البشر جميعا «فإنه من بعض صوره قسمة تختص بالأديب أو الفنان، لأنّ "الأنا" حاضرة لديه مقنّعة أو مكشوفة . وهي تتقنع وراء شخصيات المسرحية و القصّة ، لأن صاحبها يحبُّ أن يخلق المرايا المجلوة ، وينظر إلى نفسه فيها ، وهي مكشوفة إذا كان يترجم لذاته ، ويتحدث عن سيرته»(7).

ولكن هل يتحدث الأديب و يكتب عن نفسه كما يفعل عامة النّاس؟. الأكيد أنّه لا يفعل ذلك أبدا في سيرته الذّاتية، فعمله هذا ليس كحديث النّاس فهو لا يتّسم بالسذاجة و السّطحية والغرور ، و لا سيرته هذه هي من باب تدوين المفاخر و المآثر ، و إلا كانت كحديث المتشدقين الثرثارين الذين يصدمون الذوق بما يلقون و ما يديعون من دعاوي منتفخة و غرور عريض.

إنّ بين المتحدث عن نفسه من العامة، وبين كاتب السّيرة الذاتية فرقاً كبيرا ، فحديث الأول حديث و كلام الثاني لباقة و لياقة وأدب و خبر ;الأوّل كلّما أمعن في تيار الحديث يثير شكنا، والثاني لا يزال كلّما أمعن يثير شفقتنا و يستخرج الثقة الممنوحة له منّا. وهكذا يبقى الأول عاديا، ويصبح الثاني شيئا آخر في أعيننا و في ضمائرنا.. لا لشيء إنّما لاعتقادنا أنّ ما كتب لم يكن لملء الفراغ، و إنّما لتحقيق هدف و بلوغ غاية. ولعلّ أبسط الغايات من ذلك ما ذكر "سبنسر" في سيرته «و هي أنّ يجعل كتبه واضحة لمن يقرأها أو ليعّرف النّاس بالكتب التي ألّفها، والتي يزمع تأليفها»(8).

و كثيرا ما كانت السيّر و التراجم مفاتيح لما انغلق من المفاهيم.. و أبوابا مشرعة

لولـوج عـالم الأفكـار و الـرأي و النظـر والحقـائق التاريخيـة التـي غفلهـا السـرد الكرونولوجي. ومما لاشك فيه، أن الأسلوب الرصين لكاتب السيرة الذاتية ، هو الرابط بين القارئ و بينه ، وهو السبب المباشر في ذلك التعاطف و التفاعل، وبفضله تتلاقى الأنفس و تتقارب القلوب، وهو الشرارة والوهج الذي ينقدح في الأعصاب، فتتقبل الأسرار والخبايا، وتصبح أمينة عليها. بل يصبح العقل متجاوزا لكثير من الهنات المسرودة، وقد تماهى مع الكاتب وكسب ثقته و إعجابه ..فمالت عينه عن كلِّ عيبٍ وغضّت عن كل خطأٍ و ريبٍ.. بفعل الصداقة و التحبُّب.. وسلطان التجلّة والتهيّب.. و إذا بلغ الكاتب بأسلوبه من القارئ هذا المبلغ ،فقد أدى ما عليه، ونفسه بعد ذلك إلى الرضا والسكينة أقرب، لأنه أفضى بما في قلبه و سره، و جلّى ما في جعبته و يديه، وهو بأسلوبه ذاك لم يحسّ تحرجاً، ولم تضق نفسه تأثماً، إنما كان ينفّس كربه و يبثُّ شكواه، ويودع خفاياه ووصاياه إلى غيب أمين.. و قارئ وديع صديق، «وقد يكون العالم الداخلي الذي يطلعنا عليه، صورة لصراعه مع الحياة في الأحوال التي يعدّها النّاس طبيعية عادية، وقد يكون نتيجة لفترات الاضطراب و الحرب و الاستبداد، والثورات، فهذه العهود مجال خصب تظهر فيه السّير الذاتية بغزارة. وقد دلّ الاستقصاء على أنّ فترة الحرب الثانية كانت خصبة وافرة الحظ من السيّر الذاتية، وأن الكتاب كانوا على استعداد لتحقيق ذاتيتهم، وأنّه كانت لدى القرّاء رغبة للهرب من الحاضر إلى ذكريات الماضي، و خاصة بين الكبار الذين منعتهم شيخوختهم من الاشتراك في الحرب»(9).

وكاتب السيرة بهذا العمل يعرض خبراته على الآخرين بغية طلب المشاركة ، فهو يحاول أن يتحدث في صدق و صراحة ، وأمانة و تجرّد، وهو يصوّر ماضيه بماله و ما عليه ، بمآثره و عيوبه ، بفضائله و نزواته ، وبما كان يحمله من زلاّت و حسنات ، وهو يحاول في هذا كله أن يأخذ نفسه بمأخذ الجدّ والصرامة ، وأن يكون ذا نظرة موضوعية بعيدا عن العجب والذاتية . بعيدا عن حظوظ النّفس التي تحب الاستعلاء و طلب المكانة و لو على حساب انتقاص أقدار الآخرين، و بخسهم أشياءهم.. فإن فعل بسيرته هذا و بلغ، جاءت مستوفية لشروطها متّسمة بالأصالة

و الصّدق خليقة بالذوق و التأثير.

على أن هذه المرتبة آنفة الذكر لم تبلغها إلاّ سير قليلة، و قد كانت مطلب الكثير، و لكن قصرت عنها الهمم و الأهواء، و أبتها النّفوس و ما تحب ، والقلوب و ما ترغب، وكلّت عنها العقول بتاريخها، و أبطأت عن بلوغها الرّاحلة بمن يريدها ،فليست كل سيرة أدباً، و لا كلُّ أديبٍ صادقًا، بل لقد قيل :إن أعذب الشعر أكذبهُ..

إنّ كل تجربة ذاتية بلغت مرحلة النضج كان لزاماً أن تكتب ، لأنَّ صاحبها بنضوجها سيكابدُ فترات عسيرة من القلق الفنّي ، وسيبقى هذا المخاض يؤرقه إلى أن يضع مولوده إلى النّاس.

«والنّاس مهما يطل عليهم الأبد و تختلف أحوالهم هم أحد رجلين:

رجل وصل إلى حيث يؤمّل ، وانتصر على الحياة وصعابها ، وأحسن التخلص من ورطاتها

و شعابها ، و رجل كافح حتى جرحته الأشواكُ وأدركهُ الإخفاقُ ، وكلا العاملين، أعني الوصول والخيبة، يبلغان بالتجربة حدّ النّضج على شرط واحد ، هو اكتمال التصوّر لأطراف هذه التجربة و رؤيتها عند التطلع إلى الماضي ، على أساس من نظرة ذاتية خاصة ، ولولا هذا الشرط لكان كل إنسان قادراً على أن يكتب سيرة حياته»(10) . و لا تبلغ التجربة حدّ النضج إلاّ إذا رأى صاحبها مكانه من الحياة، ولن يبلغ شيئا من ذلك إلا إذا كانت تجاربه وحدة متكاملة و كان لديه مبدأ وقاعدة يفلسف

من خلالهما الحياة، و بهما يستطيع مقابلة الحقائق و الوقائع.

و قد يضاف إلى هذا تلك الحاسة و ذلك الإحساس الذي يتميّز به الفنان و الأديب وصاحب العبقرية عن غيره من أكثر السّواد. وفي ظل هذا الإحساس البالغ يستطيع أن يبدع و بها فقط يأسر النّاس و يقنع. ولا شكّ أنَّ هذا فرق أصيل بين الفنان و بين غيره ، وهو سرُّ تفرّده في الحياة ، وهو كذلك سرُّ سعادته و شقائه ، وإنّ كان أكثر من حوله لا يعلمون هذا، ولا يقدّرونه حقَّ قدره .

والواقع أنّ التجارب في الحياة متعددة، ولكنَّ التجارب الروحية منها و الوجودية - وهي ضرب منها- أشدُّ حثّاً على كتابة السيّر الذّاتية الجميلة المؤثرة ، ومن هذا القبيل كانت الاعترافات الأولى للقديس" أوغسطين" ، وكذلك اعترافات "تولستوي" ، وما صوره "الغزالي (أبو حامد)" في "المنقذ من الضلال" ، وكذلك مذكرات "ماري بشكر تسيف" وكثير من سيّر الصوفية وتراجمهم التي تصوّر سلوكهم و جوانب عديدة من غرائبهم وكراماتهم ومكاشفاتهم و ما عرض لهم من أحوال. «وهم في ذلك إنّما يصفون أنفسهم ويعرضون سيرتهم ، وقد يعرضونها شعراً ، وقد يعرضونها نثراً أشبه ما يكون بالشعر ،ففيه الإبهام والغموض ، وفيه هذا التطلع الحالم إلى أشعّة الذات العليّة. ولعلّ ذلك ما يجعل قراءة هذه التراجم محببة إلى النّفس. لأننا نجد فيها تجارب تأخذ بألبابنا، ومجاهدات تشبه مجاهدات الفراش حين يحوم على النّار ، يريد أن يسقط فيها ، وهي مجاهدات و تجارب بدأت منذ "رابعة العدوية" ومعاصرها "إبراهيم بن أدهم"»(11).

أمّا التجارب التي تصور الصراعات الفكرية ، فهي أقرب النماذج إلى التجرُّد في الحكم

و الصدق في الخبر «ومن هذا القبيل سيرة "جون ستوارت ميل" ، وسيرة المؤرخ الإنجليزي "جيبون" ، وسيرة "أدمندغوس " التي سمّاها "الأب و الابن" ، وصوّر فيها صراع جيلين مختلفي الاتجاه والنظر والميول. وكل هذا يضع هذه السيّر الذاتية في مرتبة أعلى من أنواع أخرى منها»(12).

إنّ تصوير الصّراع بضروبه المختلفة هو أبرز ملامح التجربة الذاتية ، فمن خلال هذا التصوير يطلعنا الكاتب على دخائل نفسه و أثر الأحداث فيها ، مظهراً كلّ ما ينعكس على مرآة ذاته من وقائع الماضي ، مراعيا تفصيل كل مؤثر في شخصيته و سلوكه ، ذاكراً مراحل النّمو والتحوّل على مراحل العمر المتعاقبة ، ملتزماً تواتر الأيام و تدرج التاريخ.

وهو بعد هذا كله يحاول التأثير في متلقيه ;فيضع الخطة والشراك ، ويحرك تيار وعيه الباطن، ويجيش وجدانه بما أسرَّ، ويلقي حباله الأدبية فتأسر القارئ و تقيّده ، وتقيم بين الاثنين رابطة وعاطفة، «إذ هو حين يصوّر كل ذلك يحمل القارئ لترجمته الذاتية إلى الارتداد إلى ذاته ليقيس تجاربه و مشاعره بتلك التي تصّور أمامه ، وهو حينئذٍ يعرض علينا مثالا حيا من نفوسنا ، وكل ذلك من ركائز التأثير الممتع الذي يثير فينا إحساساً درامياً ، فيرقى بنا إلى ذروة النقاء، أو قمة التطهّر»(13) .

وكاتب السيّرة الذّاتية يرغب في الانتصار على الموت ، حين يسعى إلى توثيق حياته الماضية وإخراجها من الاهمال و النسيان. والرغبة في الخلود طبيعة فطرية في كل إنسان، ولكن هذه الرغبة تشتدُّ عند الشعور بالتفرُّد والتميُّز، ففي هذه الحالة يقوى إحساس الإنسان بأنّه يستحق البقاء، وأنَّ أفكاره وما كان يريد لابدَّ أن يكتب لها الخلود.. و أشدُّ ما تكون هذه الرغبة في التوثيق عند حدوث طارئ من مرض و نحوه

أو عند الإحساس بنهاية الحياة و دنو الأجل.

ويمكن أن تكون كتابة السّيرة الذاتية استجابة لدوافع خارجية ، كالرّغبة في تعليم الآخرين و توجيههم أو للدفاع عن النّفس وتبرئة الضمير، أو ربّما لطلب الملائمة مع الظروف المحيطة ، فقد تمرُّ بالإنسان بعض التجارب تجعله في حاجة إلى إعادة النظر و إلى مراجعة الذات ، أو ربّما يكتبها لانّ العمر لم يكن ليكفيه لتحقيق مشاريعه و طموحه ، فهو يريد أن يحمّلها من بعده ، أو ربّما لأنه أدى رسالته في الحياة ، فهو يريد أن ينهيها بالرّضا والاطمئنان.

ومهما يكن من شيء، فإنّ كاتب السّيرة الذّاتية يعيش قبل كتابتها حالة من القلق و الاضطراب تزاوله ولا تنتهي عنه حتى يفضي بما يريد.. وعندئذ فقط يتخفف من حمله، و يلقي العبء عن كاهله.. وغالبا بعد ذلك ما يصل إلى حالة الاستقرار و الرضا.

فهل وصل كاتب مذكرات شاهد للقرن إلى هذه الحالة، أم أنّه رغم كل شيء، ظّل يعيش حالة الغربة و الاغتراب؟.

تجليات الاغتراب في مذكرات شاهد للقرن:

إنّ ظاهرة الاغتراب في هذه المذكرات تعد جزءا من نسيج الحياة الثقافية و الاجتماعية التي كان يحياها الكاتب، و قد جاءت نتاجا لإكراهات شتى مثّلها القمع التاريخي و السياسي و الأخلاقي و الاقتصادي جراء كمّاشة الاستعمار و القابلية للاستعمار: و هما الحالتان اللتان كانتا تكبلان الجيل الذي كان مقدّرا لمالك بن نبي أن يحيا فيه.

و إذ تدور الدّراسة حول تجليات هذا الاغتراب من خلال أدب هذه السيرة الذاتية فإنها تنوّه على أنّ الاغتراب يتمظهر في حالتين:

الأولى: سلبية، و هي تمثل الاغتراب المذموم الذي لا يفسّر إلاّ الفشل و الهروب من الواقع، و التقاعس عن النضال و التغيير. و ربّما مثلت أيضا اغتراب أهل الباطل بين أهل الحق.

و الثانية: إيجابية و هي تمثل اغتراب أهل الحق، المكافحين المنافحين عن القيم، أصحاب الهمم، الذين لا يهدأ لهم بال، حتى يروا أنفسهم قد أدّوا رسالتهم في الحياة على تمامها و كمالها.

و في الإطار الثاني كانت حالة الاغتراب محل الدّراسة و المتابعة.. و هي الحالة التي وصّفها الشاعر في قوله:

و إذا كانت النّفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

لدا وجدنا عبر مراحل التاريخ، الكثير من العظماء، قد عاشوا مثل هذه الحالات و ربّما بسبب ذلك و بسبب العنت الذي لا قوه، والصبّر الذي كابدوه، خلّدت أسماؤهم و أعمالهم و سيرهم على صفحات التاريخ.

و ابن نبي نهل أوّل عهده من نفحات هؤلاء، و هو الزّاد - ربّما – الذي جعله يعايش و يقاوم حالة الاغتراب إلى أن أكمل مهمته، و ألقى بفكرته الرّسالية إلى أجيال المستقبل التي يتوسم فيها التحرّر من الاستعمار، و من القابلية للاستعمار على الخصوص، فهو يضرب لنا مثالا رائعا عن هذه الحالة في حياة الأنبياء و المرسلين «لأن حياة الأنبياء و تاريخهم يمنعاننا من أن نعدهم مؤمنين مندفعين دون تعقل، و بكل بساطة إلى الخوارق و المعجزات، أو أن نحكم بأنهم معتوهون بأصل خلقتهم، اختلت عقولهم و بصائرهم بنقائص مزمنة، فهم يمثلون - على العكس –

الإنسان في أسمى حالات كماله البدني و الخلقي و العقلي، و شهاداتهم الإجماعية تحضى في نظرنا بالثقة التي تستحقها»(14).

لقد عرض مثالا عن هذه الظاهرة النّفسية رآها من أقيم الشهادات و أصرحها، متمثلة في حالة النبي" أرميا" الذي أورد تفصيلا وصفيا ذا أهمية قصوى لسلوكه الخاص حيال الظّاهرة، حينما قال: «لقد صرت محور سخرية طيلة النّهار، فالجميع يهزأون بي، لأنّي كلما تكلّمت ، وجدتني مضطرا لأن أصرخ ، و أعلن الجبروت و الخراب، لقد صارت كلمة الله بالنسبة لي مصدر عار و استهزاء مستمر، فإذا قلت: لم أعد أذكره، أو أتكلم باسمه، وجدت في قلبي كالنّار المضطرمة المستكنة في عظامي ، فأحاول أن أطفئها ، و لكني لا أستطيع »(15). و هذه النّار المضطرمة هي الحالة النّفسية التي تطوّق إرادة النبي، و هي العنصر الجوهري فيه الذي يحدّد بصفة نهائية سلوكه في المستقبل، و هو العنصر محل الاقتداء و التأسي للتغلب على حالات الاغتراب التي تعترض الإنسان صاحب الفكرة و الرسالة.

لذا فإن من شأن " الاغتراب" في نهاية المطاف أن يفضي إلى نقيضه، و هو التحرر، إذ لا بدّ للرّوح من أن تتعرّف في هذا العالم المستلب الذي هو عالم "الثقافة" على نتاج عمله، فلا يلبث أن ينتقل من مرحلة " الغربة" إلى مرحلة "الألفة" في صميم هذا العالم الرّوحي.

و مالك بن نبي يجب أن يكون قد أحبّ العالم، و أحبّ بلده على الخصوص، و لكنّه شعر بالاختناق في وسط لم يفهمه و لم يستطع التفاعل معه بالطريقة التي أراد، لذلك راح يطوّف في الأفاق ، و يرحل إلى قلب الصّراع العالمي الذي تمثل في حرب عالمية مدمّرة ملتفتا إلى أرض الجزائر التي بدأت تغيب في الأفق ، متمتما:

«_ يا أرضا عقوقا! تطعمين الأجنبي وتتركين أبناءك للجوع، إنّني لن أعود إليك إن لم تصبحي حرّة !

بينما بدأ ظلام اللّيل يسدل ستاره رويدا رويدا على بحر هائج تتراكم أمواجه، بعضها فوق بعض »(16)

و ربّما كان هذا الظلام، و هذا البحر الهائج بأمواجه المتراكمة بعضها فوق بعض، هو تصوير لهذه الحالة النفسية التي كان يحياها و يكابدها، فكان به ذلك الضيق الذي يأخذ بخناق من يحسّ أن ما يجري أمامه لا يوافق ما تضطرب به نفسه، أو ذلك الذي يهمّ بأن يقول أشياء يزدحم بها فكره، و لكن لسانه معقود، لأنّ النّاس لن تسمعه و لن تأبه له، و من أجل ذلك كان به «ذلك الحنين الأسيان الذي يذكّرنا بما قد تشعر به نفس فارقت جسمها، فهي تهوم في عذاب اللاّنهاية، تبحث عنه نائحة نادبة لا تجده، أو بما يمكن أن يشعر به طفل فصل عن أمّه، فهو ما ينفك سائلا عنها وجوه أمّهات أخريات، تريد إحداهن أن تحتضنه، و لكنّه لا يرى فيها أمّه، فهو يعرض عنها، أو يستسلم لها على مضض و في حسرة»(17).

إنّ هذا التطواف الفكري و المكاني في الافاق هو نزعة منطقية تقف جنبا إلى جنب مع النزعة المأساوية الشاملة ، «لذا فالمهمة الكبرى التي تقع على عاتق الفيلسوف هي العمل على فهم العالم لتغييره»(18)، و هذا الأمر لن يحدث إلا بوخز من ضمير أو تأنيب، لذلك يلجأ الكثير من أصحاب الضمائر الحيّة إلى النفي الاختياري، تماما كما فعل "جيمس جويس" الذي اختار النفي من بلده إيرلندا، و كان عليه أن يبتعد عن "دوبلن" لكي يتمكن من التكلّم عن مكبوتاتها، و عندما ظهرت روايته (يولسيسulysses) عام 1922، أحدثت انفجارات في بنية السّرد الرّوائي و

اللّغة نفسها.

و هذا بالضبط أو قريب منه ما حدث مع مالك بن نبي، الذي جلس مع ضميره متأملا، شاعرا بإحساس المسؤول المكلّف، حيث يقول: «لم تعد تجذبني أحلام الآفاق البعيدة، و لم يستملني مركز اجتماعي مرموق، لم يعد لي من حلم غير تحصيل العلم، و أصبحت أشعر كأنني حمّلت جميع آثام مجتمع يبحث عن الخلاص من بؤسه، كأنني بالنسبة لذلك المجتمع كبش فداء، شاعر بثقل ما حمّله من مسؤوليات و محن و آمال ليحقق له الخلاص بفضل دراسته (...) و لا يمكن لأحد أن يكون كبش فداء لقوم، دون أن يتصوّر بطريقة ما أنّه المنقذ المبعوث إليهم»(19).

و لذلك كانت مذكراته عنوانا لشاهد يتحدث إلينا من خلف ستار، و هو يحاول أن ينقل إلينا تبصّره بالأحداث، و ما هذه التفاصيل التي يقصها علينا إلاّ تجسيد لرؤيته الفكرية، فشاهدنا شاهد بصر و بصيرة معا، كما يوصّفه و صيّ كتبه "عمر كامل مسقاوي"(20)

و الذي يذكر أنه قال له يوما: «أنا أكتب كصاحب قضية، وليس كباحث في التاريخ و لو شئت في إطار الكتابة أن أختار ، لاخترت أدب القصّة الذي يستهويني كأديب»(21).

و لكن قضيته شائكة و خطيرة من ناحيتين:

- فمن ناحية، هو يواجه استعمارا استبداديا، يستعمل كل الطرق العلمية و يسخّرها لاستعباد شعبه و إذلاله، و يراقب كلّ حركة أو فكرة ذكية، فيصبّ على صاحبها كل سمومه السيكولوجية التي انتجتها مخابره المسخّرة لهذا الغرض.

- و من جهة أخرى، هو يعيش في وسط القابلية للاستعمار، المستكين الخامد الجامد، "الأميبي" ، الذي ظل بلا حركة أو نشاط منذ سقوط دولة الموحدين.

«و إنسان ما بعد الموحدين في أية صورة كان – باشا أو عالما مزيفا أو مثقفا مزيفا أو متسوّلا- يعتبر بصفة عامّة عنصرا جوهريا فيما يضمّ العالم الاسلامي من مشكلات منذ أفول حضارته (...) و معرفة إنسان الحضارة و إعداده، أشقّ كثيرا من صنع محرك، أو ترويض قرد على استخدام رباط عنق»(22)، و هذا ما واجهه ابن نبي و أخذ من فكره و جهده الكثير.

للاستعمار صورتان يتمثل بهما: إحداهما صورة الاستعمار المتحفظ الذي لا يتدخل مباشرة في نواحي حياة المستعمر جميعها، بل يطلق لأبناء المستعمرة بعض مظاهر الحرية، و هذا الاستعمار لم تحظ به الجزائر و شعبها، و إنّما ابتليت بالاستعمار في صورته الأخرى الذي يمثل الاستبداد في أشنع مظاهره و غطرسته. و الذي يتدخل تدخلا مباشرا في جميع تفاصيل الحياة، وهو لا يتمظهر في صورة أسطورة تكفّ العالم الاسلامي عن التطوّر فحسب، بل يظهر أيضا في صور و أعمال سالبة تطمس قيم الفرد و إمكانيات تطوره، و بهذا الشكل الثاني يمكننا تصوّر الاستعمار كعقلية علمية مطبقة في المجال السياسي، تجعل الانسان المثقف الواعي، المدرك لهذه الحالة يعيش حالة الكاتب، الذي مثّل نفسه بسمكة "البروشي" الصغيرة التي تحاول تمزيق شبكة الاستعمار و هي لا تدري أنّه يقطّع أوداجها و يلفها بخيوط عنكبوتية من هنا و هناك.

لقد كانت الخيوط التي يمزقها تترك في مصيره و مصير أسرته البريئة جروحا لا تبرأ و لا تندمل ، حتّى شعر أخيرا ببؤس تلك السمكة المتمردة، التي «طالما مزّقت تقلباتها المتحدية خيوط الشبكة المعدّة لصيد السّمك الهادئ في المستنقعات السياسية...إنّهم لا يريدون الآن اقتلاع بعض حراشف جلدها فقط، و لا اقتلاع بعض

أنياب فمها فحسب... لا بل يريدون مرّة واحدة أن يلقوها في المقلاة فيقلوها و يشووها حتى تصير لقمة سائغة للآكلين»(23).

لقد حرّم الاستعمار عليه العمل لكسب لقمة العيش في باريس و الجزائر على السّواء كما قام بإحالة الأب المعيل على البطالة، ثمّ حرمه حتّى من الهجرة إلى الخارج، و لم يرض حتّى بالتحاقه بمعاهد فرنسا و نجاحه فيها..

و لكن كلّ هذا كان يواجهه ببسالة المقاتل الشرس، الذي يعرف عدوّه حقّ المعرفة، إلاّ أنّ ما لم يكن يستسيغه و لا أن يصبر عليه، هي بلادة "القابلية للاستعمار" التي ولّدت فيه عصبية و عدم مرونة ضد كل ما هو غبي و جامد، هذه القابلية التي أوجدت «مخلوقات باهتة فاترة و هجينة، لاهي بنساء و لا برجال، لا أخلاق لها، و تبدو أدوات قذرة في متناول الاستعمار»(24).

و قد حدّد من ضمن هذه المخلوقات نوعان من الأهالي:

- نوع الخونة الواضحين الذي يقتات من أموال الاستعمار و من ازدراء الشعب
- و نوع الخونة المترفين الذين يعيشون من أموال الشعب باستغلال جهله.

و على الجملة كما يقول: «فإنّ الطبقة الأولى أقل احتقارا، و أقل خطورة لأنّ خيانتها جليّة ظاهرة»(25)، و في وجه كلا النوعين من الأهالي (الأندجين) في بلاده رمى هذه الشهادة - المذكرات – كشهادة احتقار و ازدراء. و في نفس الوقت فهو لا يكتبها من أجلهم، «و لكن للشعب عندما يستطيع قراءة تاريخه الصحيح، أي عندما تنقضي تلك الخرافات التي تعرض أحيانا أفلاما كاذبة، و التي سيكون مصيرها في صندوق المهملات مع مخلّفات العهد الاستعماري»(26).

إنّ القارئ لمذكرات شاهد للقرن يرى حجم المكابدة و العناء الذي عاشه كاتبها، جرّاء هذا المحيط المتعفن الذي لم يكن التنفس فيه بالأمر اليسير.

كان يعيش حالة اغتراب مريرة، جعلته يتمنى الموت ويطلبه مرات عديدة لأنّه أصبح لا يرى شيئا ممّا يحيط به، حتّى الطبيعة استوحشها، فهي لا توحي إليه كما عهدها، إذ يقول: «كأنني أجنبي على كل ما يصب و يدب في هذه الطبيعة المرفرفة، كأنّني محجوب عنها بما يضطرم بين جنبي، و ما يعصف بينها من عواصف هوجاء. لقد أصبحت أعيش داخل نفسي كالسّجين داخل سجنه»(27)

إنّ المرء يعيش هذه الحالات النّفسية عندما لا يبقى أمامه إلاّ رجاء الفناء، وكم تمنى برحابة صدر ذلك الفناء. فقد تنبأ علماء الفلك بكارثة اصطدام ممكنة بين الأرض و بين أحد الأجرام في السماء، فتقبل هذا النبأ بكثير من الرّجاء.

و لم يشعر، و لم يكترث للخطر الذي كان يحدق بهم في البحر عندما كادت سفينتهم أن تغرق جرّاء العاصفة الهوجاء التي ضربتها، و عندما وصل إلى مرسيليا و سمع الرّبان يقول لزميل له: إنّ سفينته أوشكت على الغرق، آسف لأنّها لم تغرق فعلا.

و لم تكن تسعفه بعد حالاته هذه إلاّ يد الله التي تعمل في الخفاء، حينما تلقي في روعه تلك الجرعات الإيمانية، فتشحنه من جديد لمواجهة أعاصير جديدة منتظرة، و لكنّه في الأخير لم يبق له رجاء إلاّ في حرب عالمية تغير كل شيء..

وعندما دقّت ساعة الحرب، و عبر الجيش الألماني حدود بولونيا في السّاعة الخامسة صباحا من ذلك اليوم المشهود، لم يكن يصدّق لطول انتظاره..

لقد عبّر عن حالاّت اليأس و الرّجاء، بشعور من يقبر ثمّ يخرج من قبره حيّا، فهو

يقول: «لم أكن أعلم بعد أنّ هذا الشعور سيلازمني في حياتي، لأنني أكون دوما في حالة من يقبر.. و في حالة من يخرج من القبر حيا»(28)

إنّ ظاهرة الاغتراب تعدّ من الظواهر الأكثر وضوحا و تجليا في مذكرات شاهد للقرن، فقد شكّلت حالة محورية مسيطرة على الكاتب، الذي استطاع تجسيدها فنيا من خلال الكشف عن طبيعة العلاقة بين عالم الواقع و عالم الطموح و الرّجاء، حيث اتسمت هذه العلاقة بالتناقض و التعارض و التصادم إلى حدّ الشعور بالضياع و الاغتراب.

و لعلّ الواقع المرير الذي عاشه ابن نبي، و الظروف التي كانت تحيط به و يعيشها وطنه المحتل، أثرت بشكل كبير في تشكل منظومته الفكرية و الثقافية و الفنية،و اتجاهه نحو التعبير عن هذه الظاهرة الاغترابية التي كان يعانيها و يواجهها.

و قد تعددت أوجه الاغتراب في هذه المذكرات بالنسبة للكاتب بصفته الشخصية المحورية التي تدور حولها الأحداث، و لعلّ أخطرها الاغتراب الثقافي و الفكري الذي كان يعيشه و يحياه، و لم يفهمه جيله - مع الأسف - في هذا الموضوع بالذّات و هي النقطة التي كانت تؤرّقه و تضنيه، و تولّد عنها اغتراب اجتماعي بعدما عجز عن التكيف مع الواقع، لأنّه كان يحتقره و يزدريه، و أبت نفسه الكبيرة أن تتنازل إلى مستنقع القابلية للاستعمار الذي تتكاثر فيه الجراثيم و تتكدس الأوبئة و الأدواء.

و عادة ما تظهر هذه الحالة لدى المثقفين الذين يتمتعون بقدر من الإحساس و التبصر بمشكلات الأمّة و معاناة الإنسان.

الإحالات:

(1)-فيصل عبّاس: الاغتراب (الإنسان المعاصر و شقاء الوعي) ، دار المنهل اللّبناني: بيروت، 2008،ص 10

(2)-ينظر: محمد بن أبي بكر الرّازي: مختار الصحاح، دار الكتاب العربي، بيروت، 2004، مادة: غ ر ب ،ص 232

(3)-سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي في القرن الرابع الهجري، دار الينابيع، دمشق، ط1، 2000، ص 32

(4)-ريتشارد شاخت: مستقبل الاغتراب، تر: وهيبة طلعت أبو العلا، منشأة المعارف،(د.ت)، ص 59

(5)-ينظر: عزّت حجاري: الشباب العربي و مشكلاته، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1985، عدد 6، ص 72

(6)-يحي العبد الله: الاغتراب، دراسة تحليلية لشخصيات الطاهربن جلّون الروائية. المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ط1، 2005، ص 25

(7)-إحسان عبّاس: فن السّيرة، ط1، دار الشروق، 1996، ص 91

(8)-المرجع نفسه، ص 93

(9)-المرجع نفسه، ص 94

(10)-المرجع نفسه، ص 95

(11)-شوقي ضيف: الترجمةالشخصية، ط4، دار المعارف، القاهرة، ص 60

(12)-إحسان عباس: فن السّيرة، مرجع سابق، ص 96

(13)-يحي إبراهيم عبد الدايم: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص 10

(14)-مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، (د.ت) ، ص 94

(15)-المصدر نفسه، ص 102

(16)-مالك بن نبي: مذكرات شاهد للقرن، بإشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، 2009، ص428

(17)-سامي الدروبي: من مقدمة ثلاثية محمد ديب، دار الوحدة للطباعة و النشر، بيروت، 1985،ص 6

(18)-فيصل عبّاس: الاغتراب. مرجع سابق، ص44

(19)-مالك بن نبي: مذكرات شاهد للقرن، مصدر سابق، ص 220

(20)-ينظر: تصدير كتاب مذكرات شاهد للقرن، مصدر سابق، ص 8

(21)-عمر مسقاوي: العالمية و رسالة الحضارة و الثقافة في فكر مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، 2005، ص 8

(22)-مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، (د.ت)، ص 38

(23)-مالك بن نبي: مذكرات شاهد للقرن، مصدر سابق،ص382

(24)-مالك بن نبي: العفن، تر: نور الذين خندودي، منشورات بن مرابط الجزائر، 2016، ص 9،10

(25)-المصدر نفسه، ص 10

(26)-مالك بن نبي : مذكرات شاهد للقرن، مصدر سابق، ص 288

(27)-المصدر نفسه، ص 382

(28)-المصدر نفسه، ص 400